مفهوم الهيمنة الفلسفية عند لوي ألتوسير

د. نوال بورحلة

جامعة الجزائر2

Résumé

Cet article à pour but de faire connaitre la philosophie de Louis Althusser, en précisant sa vision vis- à- vis de la philosophie, qui se résume dans la considération de la philosophie comme : des thèses dénuées de sens, et des positions répétitives ; c'est deux éléments caractérisent la philosophie « éternelle »

Mots clés : philosophie ,éternelle ; des thèses dénuées ,domination ;histoire

عرف لوي ألتوسير (1918–1990) بأفكاره الجريئة في الحقل الفلسفي المعاصر، ومن بين هذه الأفكار فكرته المتعلقة بفلسفة ماركس، والذي يقترح فيها إعادة قراءة ماركس قراءة علمية، وفق المستجدات العلمية المعاصرة. قراءة يأمل من خلالها ألتوسير إلى الارتقاء بماركس إلى مرتبة فيلسوف أضحى في نظره ينتمي إلى فئة الفلاسفة الكبار، بل

و إلى العلماء المشهورين من أمثال جاليلي ونيوتن، وكذلك فكرته حول مفهوم الإنسان، الذي اعتبره ألتوسير مفهوما إيديولوجيا1، وبالتالي فهو – الإنسان – لا يلعب أي دور في مختلف الممارسات التي يتكوّن منها المجتمع – سواء على المستوى الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي أو الفني..– سوى الدور الذي تمنحه إياه البنية.

من هذا المنطلق فإن فكرة الإنسان من منظور ألتوسير مفهوم خال من أي معنى. ويذهب ألتوسير أبعد من هذا إذ يرى أن مفهوم الإنسان هو مفهوم تتلاعب به مختلف القوى السياسية، وهذا من أجل إحكام السيطرة عليه2، وبالإضافة إلى هذا توجد فكرة تكتسي أهمية بارزة في فكر ألتوسير وتتعلق بمفهوم الفلسفة، والتي فتحت مجالا واسعا للنقاش والبحث على الساحة الفكرية المعاصرة، ولا سيما على الساحة الفرنسية. وإلى جانب تلك الأفكار فكرة الهيمنة التي منحها ألتوسيربعدا دلاليا مغايرا، وهذا ما سنوضحه في هذه المقالة.

إن البحث عما يرومهألتوسير من مصطلح الهيمنة يتطلب منا البحث عن مفهوم الفلسفة عنده، ذلك لأنه لا يتحدد معنى الهيمنة إلا بتحديد معنى الفلسفة، فما هو مفهوم الفلسفة عند ألتوسير، وما علاقتها بمفهوم الهيمنة عند هذا الفيلسوف؟

يمنح ألتوسير للفلسفة معنى**قدحيا**، إنها بالنسبة إليه لا تضيف إلى المعرفة ما يستحق أن يعتمد كأساس للبحث. يحلل ألتوسير هذا موضحا ما يلي: إن المتتبع لتاريخ الفلسفة يلحظ منذ طاليس إلى أفلاطون وصولا إلى كانط أنه لا يوجد شيء داخل الفلسفة، وما يحدث بداخلها سوء مسائل كررت نفسها. إن الفلسفة من وجهة نظر ألتوسير ما هي إلا تكرار للمواضيع التي سبق لها وأن طرحت على بساط البحث والنقاش، وهي بهذا المعنى لا تضيف أي جديد للمعرفة، إنما الجديد الذي تصنعه الفلسفة وتتفوق به هو طريقة عرض تلك الأفكار – المكررة – بأسلوب فني جميل ومنظم، وفي هذا يقول: " يوجد اقتناع أن الفلسفة ليست لها

ممارسة ولا موضوع وأن مملكتها هي الأفكار والكلمات المنظومة. قد تكون هذه الأفكار والكلمات جيدة، ولكنها توجد في الفراغ "3.

إن الفلسفة كما يراها ألتوسير هي فن الكلام المنسجم والمنسق، وعليه فإن ميزة الفلاسفة هي قدرتهم على التلاعب بالألفاظ وبالكلمات، وفي هذا السياق يقول: " [الفلاسفة] لاعبون مهرة نشيطون بلا فائدة، إنهم مثقفون دون ممارسة فهم يأخذون بعدا عن كل شيء، ومقالتهم ليست إلا تفسير لهذا البعد، فهم يحاولون من بعد أن يأخذوا الواقع في كلماتهم وأن يقحموه في منظومات"4. وباعتبار الفلسفة ما هي إلا ألفاظ منسقة فهي بهذا المعنى ادعاء أي مجرد كلام يفتقر في مضمونه إلى الدليل والحجة. يقول ألتوسير: " ... والفلسفة ادعاءات أكثر منها عناوين هذه الادعاءات بنيت على مقالات جميلة "5، فإنها بذلك – أي الفلسفة – لا تنتج معارف، بمعنى أنها لا تسهم في إثراء الفكر البشري ولا تقدم

حلولا للمشاكل المستعصية، وإنما تكتفي بتكرار ما قيل سابقا، وهذا على خلاف العلم.

هذا الأخير الذي ساهم في حل الكثير من المسائل التي كانت مصدر قلق للإنسانية، وفي هذا السياق عقد ألتوسير مقارنة بين الفلسفة والعلم. إن للعلم موضوعات محددة وواضحة، يدرسها ويوسعها ويصححها باستمرار عن طريق المراجعة والتصحيح والتعديل والحذف النهائي للأخطاء، وإدماج النتائج الجديدة، وبهذه الطريقة يتحقق في ميدانها – العلوم – تراكم كمي وكيفي يسمح في نهاية المطاف بالحكم على هذه الموضوعات بأنها تتقدم بالفعل، وبأن تقدمها هو ما يشكل تاريخها الملموس، أما الفلسفة فهي لا يحصل فيها أي تقدم لأنها مجرد تكرار ما أنتج من أفكار تناولها الفلاسفة من قبل6.

وإذا كان لا يحدث شيء في الفلسفة – حسب ألتوسير – معنى هذا أن مسائل الفلسفة هي مسائل وثوقية، والمسائل الوثوقية كما يقرها

ألتوسير غير قابلة للبرهنة وللتثبث7، فهي غير قابلة للبرهنة على خلاف قضايا الرياضيات والمنطق التي يمكن أن نبرهن على صدق بنائها، وهي غير قابلة أيضاللتتبث على خلاف العلوم التجريبية التي نستطيع التحققق تجريبيا من صدق قضاياها. يقول ألتوسير: " إن أطروحات الفلسفة لا يمكن أن تكون موضوع برهنة ولا إثبات علميين، لا يمكن أن يقال عنها أنها صحيحة ومتبثة كما هو الشأن في الرياضيات والفيزياء، بل يمكن فقط أن نقول أنها صائبة "8.

يرجع ألتوسير سبب قصور الفلسفة على البرهنة والتثبث إلى كونها مرتبطة بميدان الممارسة والمجتمع، وما دامت أنها تحتك بالمجتمع فإنها تعبر عن مواقف وآراء المجتمع، بمعنى أنها تعكس أصداء وآراء مجتمع ما، ويقسم ألتوسير مواقف المجتمع إلى موقفين: الموقف الذي يمثل النزعة المثالية الإنسية، والموقف الذي يمثل النزعة المادية، وعليه فإن الفلسفة تعكس داخل المجتمع مواقف مثالية ومادية، وانطلاقا من هذه

الفكرة من المستحيل حسب ألتوسير أن تقدم الفلسفة برهانا يقينيا على صحة الموقف المادي أو الموقف المثالي، أو بيان خطأ أحد الموقفين.

ويعزى هذا حسب ألتوسير لأن المواقف المثالية أو المادية، أو الموقف الفلسفي بصفة عامة ليس خاضعا لشروط المعرفة العلمية. إن المذهب المثالي لا يستطيع أن يبرهن على صحة مبدئه أن أصل الوجود هو من طبيعة غير مادية، ولا المذهب المادي يستطيع أن يبرهن أن أصل الوجود بمختلف تجلياته هو من طبيعة مادية، فماذا تفعل الفلسفة في هذه الحالة ؟ و لنيبقى للفلسفة سوى الاعتراف أنها عاجزة عن تقديم براهين علمية على صحة مواقفها، وما تفعله سوى عرض مواقف الفلاسفة أي إعادة تكرار ما قيل سابقا.

بناء على هذا كله فإن الفلسفة من وجهة نظر ألتوسير، ما هي إلا تكرار للمواضيع، وما يجب التنبيه إليه في هذا الإطار أنّ التكرار في الفلسفة ما هو إلا صراع بين المواقف الفلسفية أي بين الموقف المادي والمثالي، من أجل احتلال موقع الصدارة أو كما يسميه ألتوسير من أجل

الهيمنة، فالمقصود بالهيمنة هو تكرار ظهور واختفاء بعض المواقف الفلسفية، يعني أن الأطروحات القديمة يعاد إحياؤها لتظهر مرة أخرى في شكل فلسفات جديدة، ذلك أن الفلسفات القديمة كما يرى ألتو سير التي يعتقد أنها اندثرت توجد دائما في حالة كون واستعداد للوثوب واحتلال موقع الصدارة من جديد، ومن هذا المنطلق فإن تاريخ الفلسفة كله هو تكرار مستمر لعملية التداول وانقلاب الأفكار المادية والمثالية، وهذا من أجل إلغاء الهيمنة السائدة واستبدالها بهيمنة مضادة جديدة، أي بموقف مغاير لما هو سائد.

يقول ألتوسير: " إن تاريخ الفلسفة يعمل بصفة مغايرة تماما، فعمله يتم عبر صراع من أجل هيمنة الأشكال الفلسفية الجديدة على القديمة، تاريخ الفلسفة هو صراع في اتجاهات متحققة في تشكيلات فلسفية، فهو دائم الصراع من أجل الهيمنة "9. ما يمكن أن نستنتجه من مفهوم الهيمنة عند ألتوسير أنها:

أولا: تعني الصراع والتكرار، وفي مقابل هذا لا نعثر على ما يمكن تسميته بفكرة الانتصار والغلبة أو التفوق، وفي هذا الإطار يقول ألتوسير: " لا يقع في الفلسفة الانتصار الكلي للخصم، وبالتالي لا يقع التخلص منه نهائيا ولا يشطب من الحياة التاريخية.. فهو يستمر كتشكيلة فلسفية مهيمن عليها وجاهزة للانبثاق من جديد إذا ما بادر الظرف بالإشارة إليها في أول فرصة "[10].

ثانيا: لا نجد ما يسمى أيضا بفكرة الخطأ في الفلسفة، فلا خطأ في الفلسفة وإنما يوجد فقط صراع بين الاتجاهات الفلسفية من أجل الظهور والهيمنة، ذلك أن مفهوم الخطأ من منظور ألتوسير يجب أن لا يقرن بالفلسفة وإنما بالعلم. يقول: " إن تاريخ الفلسفة يمر بطريقة تختلف عن تاريخ العلوم، فكثيرا ما نلاحظ في تاريخ العلوم عمل مسارين اثنين: مسار يطرح بكل بساطة الأخطاء (التي تضمحل تماما)، ومسار يسجل

من جديد المعارف والعناصر النظرية السابقة في إطار المعارف الجديدة المكتسبة والنظريات الجديدة التي وقع بناؤها "11

ما يمكن أن نفهمه من خلال هذا القول أنه لا يوجد في الفلسفة ما يطلق عليه اسم " خطأ " يمكن أن نصححه ونعدله ليظهر في ثوب جديد. على هذا الأساس يمكن القول من وجهة نظر ألتوسير أنه لا يتحقق أي تقدم أو تأخر في الفلسفة.

ثالثا: إن الهيمنة والتي هي عملية تعاقب وتكرار الانقلابات في تاريخ الفلسفة هي في عمقها ذات دلالة سياسية، كيف ذلك؟

إن الفلسفة في نظر ألتوسير لا تمتلك موضوعا محددا، وما دامت عاجزة عن أن يكون لها موضوع–مثل العلم – فهي مجرد ميدان لسجال وصراع يرتبطان في نهاية الأمر بقضايا ومسائل لها علاقة بما يحدث في الميدان الاجتماعي. إن الصراعات التي تحدث في الفلسفة هي

صراعات لا تتوقف ،والسبب في ذلك هو وجود خيوط تربطه بالصراع السياسي القائم في المجتمع.

انطلاقا من هذه الفكرة أراد ألتوسير أن يربط الفلسفة بالسياسة التي تحدد شكل التعبير الفلسفي، وفي هذا يقول:"... إن الفلسفة مرتبطة بالسياسة مثل الشفتين بالإنسان... وأن الأطروحات الفلسفية ما هي إلا مسائل ونقاشات سياسية.. وأن كل نص فلسفي هو في نهاية المطاف تدخل سياسي في النظرية"12.

إن الفلسفة من وجهة ألتوسير تكتسي طابعا سياسيا، فهي تتضمن مواضيع سياسية بالدرجة الأولى، فلم تكن – الفلسفة – يوما ما تأملا خالصا أو منزها عن أية غاية للتدخل والتأثير على مجرى الأحداث، وذلك رغم ادعاء الفلاسفة بأنهم نزهاء ومحايدون، فمنذ أن وجدت الفلسفة وهي تنكر أن تكون لها علاقة بالسياسة، وتبذل جهدا كبيرا في التعبير عن هذا الإنكار في خطابات ونظريات13.

لقد حرصت معظم المذاهب الفلسفية على التأكيد بأنها تتعالى على الصراع الذي يجري في الميدان الاجتماعي، ويرى ألتوسير أن أحسن مثال على ذلك فلسفة كانط التي تعد نموذجا بارزا لهذا الموقف، فالصراع بالنسبة إلى هذه الفلسفة يحدث دائما خارجه، حدث بين المذاهب لفلسفية تلك التي سبقتها أو التي تعاصرها، أو ما هي مستثناة من الصراع، لأنها تعتبر نفسها بمثابة محكمة نزيهة ومحايدة تحاكم الفلسفة وتاريخها باسم العقل الخالص.

لقد تدخل الفلاسفة في مجرى التاريخ وطمحوا إلى التأثير في مجموعة الممارسات الاجتماعية، من أجل الحفاظ على أوضاع راهنة وتدعيمها وتقويمها، وإما من أجل العمل على إسقاطها والقضاء عليها أو من أجل التغيير، وبعبارة أكثر دقة من أجل الهيمنة، وهكذا فإن لكل فلسفة وبكيفية غير مباشرة نتائج وانعكاسات على مستوى الممارسة السياسية، سواء كان الفلاسفة واعون بذلك أم لا. ويمكن أن نسوق مثالا على ذلك لتوضيح هيمنة الموقف الفلسفي على المستوى السياسي بمفهوم الإنسية.

يقصد بالإنسية بالمعنى الفلسفي هو ذلك التصور الذي يجعل من الإنسان القيمة العليا، ومن هذا المنظور تكون كل فلسفة تنطلق من الذات، أي من الإنسان وتتخذه محورا لتفكيرها وغايتها وقيمتها العليا، ولا يتحقق هذا الأمر كما يرى لالاند إلا باستبعاد كل ما من شأنه أن يحط من قيمة الإنسان14.

تهتم النزعة الإنسية بالإنسان إيمانا منها بأن المبادرات البشرية تسهم في صناعة التاريخ، الذي لا يتخذ اتجاها ومعنى إلا إذا كان مرتبطا بفعاليات وأهداف إنسانية، كما يؤكد هذا التصور الفلسفي عن أولوية الوعي والإرادة في كل مشروع تأسيسي والتصدي لكل ما يسيء إلى الإنسان. إن مفهوم الإنسية من وجهة نظر ألتوسير – والذي هو تصور فلسفي – استغل من طرف البرجوازية حتى تتمكن من السيطرة على الإنسان، لقد وضعت البرجوازية في القرن الثامن عشر إيديولوجية ذات صبغة إنسية قائمة على الحرية والمساواة في ظاهرها، فأدى ذلك إلى إيمان الناس بالمطالب الإنسانية المزعومة في حين أنها كانت تسعى

إلى استغلالهم. على هذا الأساس اعتبر ألتوسير النزعة الإنسية قناع تستغله البرجوازية.

إن الإنسية كما يقول " أمنية غير مسلحة ولكنها خطيرة، إنها أمنية الطبقة البرجوازي " يخلص ألتوسير في نهاية المطاف إلى أن الفلسفة لا يمكنها أن تنفصل عن السياسة15. لقد أقر ألتوسير بقدرة الفلسفة على الهيمنة في المجال السياسي، كما أقر في الوقت ذاته بقدرة الفلسفة على الهيمنة في المجال العلمي. منح ألتوسير للفلسفة مهمة التصدي للمد الإيديولوجي الذي يكون سببا في عرقلة العلم، غير أن الفلسفة في تدخلها في المجال العلمي تعكس مواقف فلسفية ذات دلالة سياسية، فهي من هذا المنظور صراع طبقي على مستوى النظرية16.

ويضرب لنا ألتوسير مثالا على هيمنة الفلسفة في المجال العلمي بفلسفة باسكال(1662-1623)، الذي حاول أن يتخذ من المنهج العلمي طريقا للوصول إلى الدقة وتفادي الوقوع في التفسيرات الدينية، إلا أنه

.

وجد صعوبات علمية حالت دون الوصول إلى حل علمي فاستنجد بالدين قصد العثور على مخرج للأزمة العلمية، فحول الصعوبات من صعوبة علمية إلى قناعة دينية، فاعتبر أن الفراغ ليس ماديا ومع هذا يجب الإيمان به17.

وفي الإطار نفسه نجد إيميل بوترو(1845-1921)في دفاعه عن لاحتمية القوانين الطبيعية لا يستمد موقفه أو براهينه من العلم بل من خارجه، فرأى – حسب ألتوسير – أن القول بوجود قوانين تتحكم في الطبيعة موقف لا يستمد من العلم ولا يمكن أن يكون معيار الصدق، ذلك لأن القوانين الطبيعية هي افتراضات من صنع المخيلة عممها العلماء على الطبيعة بصورة تعسفية واعتبروها فرضيات مطلقة وأكيدة، وذهب بوترو في موقفه النقدي لحتمية القوانين الطبيعية إلى حد اعتبار أن النظريات العلمية ما هي إلا وسائل وحيل للسيطرة على الكون، فهي لا تملك أية قيمة نظرية. لا يعكس موقف بوترو في نظر ألتوسير موقفا علميا بقدر ما هو تعبير عن قناعات واعتقادات بعيدة عن مقاييس العلم،

فهو يعبر عن الموقف الديني الذي يقر بأن الله باستطاعته أن يتدخل في الطبيعة ويشل نظامها وقوانينها18.

وفي هذا السياق يحذر ألتوسير العلماء من مغبة الوقوع في التفسيرات الميتافيزيقية، سواء كانت تفسيرات دينية روحية أو مثالية إنسية، لأنها تفسيراتليس لها علاقة بالعلم.إن هيمنة التفسيرات الفلسفية على ذهن العلماء من شأنه أن يؤدي إلى انحراف العلم عن مسعاه الحقيقي، ذلك أن قوة الفلسفة حسب ألتوسير تكمن في قدرتها على الهيمنة على عقول العلماء، وهذا عن طريق تسرب الأفكار الفلسفية إلى ذهن العلماء من غير وعي منهم فيشرعون أثناء ممارستهم للعلم في إنتاج فلسفة، وفي هذا السياق يقول ألتوسير: " كنا نظن أن الفلاسفة هم الذين ينتجون فلسفة ولكننا نكتشف في الوضع المتأزم أن العلماء أنفسهم يأخذون في صنع الفلسفة "19.

إن المسائل التي يتعرض لها العلم من وجهة نظر ألتوسير تكون مناسبة لظهور الفلسفة، وهذا عندما يعجز العالم عن إيجاد حل للمشكل العلمي، فتصبح الأزمة بالنسبة إلى العلماء فرصة سانحة لتزويد العلم بأفكار خارجة عنه، فيستدلون على العلم بهذه الفلسفة، ويدعون أنه يتكلمون من داخل الأزمة.

نستنتج من مفهوم الهيمنة أن الفلسفة لا تموت فهي خالدة، إنها لا تندثر، فبفعل عملية الترقب تعاود الظهور من جديد لاحتلال مركز القوة. هذا الصراع – يمثله كل من المذهب المثالي والمذهب المادي – الذي يتكرر في كل عصر وفي كل فترة تاريخية، وهذا ما يفسر استمرار الصراع ومنه استمرار هيمنة الفلسفة.

مصادر و مراجع:

1−Louis Althusser. **PourMarx** .(Paris : F .M,1965), p235.

2−Ibid, p15.

3 –- لويألتوسير، الفلسفة و فلسفة العلماء العفوية، المصدر نفسه، ص 27 .

4 –المصدر نفسه، ص26.

5 – المصدر نفسه، ص26.

6 – عبد الرزاق الدواي، **حوار الفلسفة والعلم والأخلاق في مطلع الألفية الثانية**، (الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع المدارس، à2004، ط1، ص101.

7 - لوي ألتوسير، **الفلسفةوفلسفة العلماءالعفوية**، ص24.

8 – المصدر نفسه، ص24.

9 - لويألتوسير، **المصدر نفسه** ، ص81.

10 لوي ألتوسير، **المصدر نفسه**، ص82.

11 المصدر نفسه، ص81.

12 -Althusser, **Positions**, (Paris : Editions sociales,1976),p 5.

13 -Althusser .Lénine et la philosophie ..(Paris : F.M ,1969), p40

14- أندريه لالاند، **الموسوعةالفلسفية**، تعريب: خليل أحمد خليل، (بيروت: منشورات عويدات، د.ت)، المادة: الإنسية.

15 - Althusser ,ecrits philosophiques et politiques, T2, (Paris : stcklimec, 1997) p 74

16Althusser. Réponse à Jhon Lewis, p 48.

17– لوي ألتوسير، **الفلسفةوفلسفة العلماءالعفوية**، ص80.

18 - المصدر نفسه، ص80.

19– المرجع نفسه، ص 70.